مجلة جامعة بابل/ العلوم الإنسانية /المجلد ٢٤/ العدد٤ :٢٠١٦

الأفعالُ الكلاميَّةُ في الخطاب الأخلاقيّ عند الإمامِ الحُسين عليه السلام

دراسةٌ تداوليَّةٌ

رحيم كريم عليّ الشَّريفيّ حسين عليّ حسين الفتليّ
جامعة بابل/ كلية الدراسات القرآنية وزارة التربية/ الكلية التربوية /بابل
Hussaianalfatly@yahoo.com

المُلخَص

يسعى هذا البحث الى الكشف عن ظاهرة الأفعال الكلاميّة في الخطاب الأخلاقيّ عند الإمام الحسين (عليه السلام) ، ومن هنا فإنّنا نَسْعَدُ حينما نتناوش جَنْبَة لغويّة تداوليّة عظيمة البيان، عاليّةَ المضمونِ في الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ وهي تغطّي _فيما نَخالُ _حيزًا كبيرًا مِنْ أدبِهِ .

إنَّ الأفعالَ الكلاميّةَ تُمثّلُ بابًا عريضًا من أبوابِ الإبانة والتحاوُرِ، وهذا ما تَسْعَى إليه التداوليّة المعاصرة، فالمتكلّمُ والسامعُ في دائرةٍ متصلةٍ من الحوار والتواصل ، وهو الذي ألفيناه في الخطابِ الأخلاقيّ الحسينيّ، وإنَّ معاينةَ الحدث الكلاميّ وأقطابَهُ تؤذن بتحقّق دلالة الحدث الكلاميّ الكليّة، وهذا ما نحاول مسترفدين إيّاه في مباحثتنا هذه، التي بدت على استظهار الدلالات المترشِّحَةِ من الخطاب الحسينيّ باستشراف جسور التواصل والإبانة؛ ومِنْ أجلِ استثمار القوى القوليّة، والتأثيريّة، والإنجازيّة التي تُعُورفت في الدرس التداوليّ، ولاسيّما في مظهر (الأفعال الكلاميّة)، وقد ائتلفت من ثلاثة مطالبَ، هي: المطلب الأول: الخطابُ الأخلاقيّ والتداوليَّة مقاربةٌ تأصيليةٌ، والمطلب الثاني:الأفعالُ الكلاميّةُ المباشرةُ في الخطاب الأخلاقي الحسيني(عليه السلام)، أمّا المطلب الثالث: الأفعالُ الكلاميّةُ غير المباشرةِ في الخطاب الأخلاقي الحسيني(عليه السلام) .

الكلمات المفتاحية : التداولية ، الفعل الكلامي ، الإمام الحسين عليه السلام .

Abstract

This research seeks to expos the phenomina of speech acts in the moral discource of imam Hussein (PBUH)

The study discusses the speech acts as a form of the modern Pragmatic theory .it reprent a deep –rooted systematic source which comprised the Pragmatic dimensions especially the dimension of speech acts which studies an intented text that has its clearness , impactS and performances.

speech acts reprents a wide approach of demonstration and conversation and this contemporary Pragmatism endeavars the speaker and the listener are in aconnected circle of conversation and communication which we have found in the moral discourse of imam Hussein, this what we intend to study in this research in order to show the menanings resulted from this discourse and to clearify the bridges of communication and demonstration .

this study involves an introduction and three chpters:

chpter one :the pivot of the moral discource of imam Hussein (PBUH)

chpter two: direct speech acts in the moral discource of imam Hussein (PBUH)

chpter three: in direct speech acts in the moral discource of imam Hussein (PBUH)

Keywords: deliberative, verbal act, Imam Hussein, peace be upon him.

بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

المُقدمة

الحمدُ لله الذي عدّد صُورَ البَيانِ، ولمْ يجْعَلْه باللِّسان وَحْدَه، وهَيّأ لعباده أصنافَ الدلالات من أجل التحاوُر والتواصُل والتعايُش مصْداقًا لمحكم كتابه، وشريف خطابه: ﴿ **وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)** [الحجرات: ١٣]، وصلّى الله على الخطيبِ بالقرآنِ سيّدِ البيانِ، وأميرِ التراحُمِ والحوارِ محمدٍ الخَيْرِ والحِكْمةِ والرَحمةِ، وعلى آله بيَنَةِ الكتابِ، وأدِلّة الرَّشاد، وفَصلَةِ الخِطابِ، أمّا بعدُ :

فلا جَرَمَ أنَّ الخطابَ الأخلاقي للإمام الحُسين (عليه السلام) يمثّلُ منظومةً احتجاجيةً تَوَافَقَ وتَسَانَدَ في قَبُولِها ممّن قَعّد أُسسَ قواعدِ الاحتجاجِ الكَلاميّ في البيئةِ العربيّة، وكنا نَحْتَفي بقُيُودِ علماء العربيةِ ومُحدِّداتِهم، وحقًا أنَّ رجْعَ النظرِ في هذه المقيّداتِ والمعايير يَجْعلُنا مطمئنين لهذا الأدب الحسينيّ الماتعِ النافعِ من جهة قَبولِه ضِمْنَ الدائرة الاحتجاجيّةِ المتواترة في صحتها وقبولها مرّة، والبحث في تراكيب هذا الأسلوب الرائع مرّة أخرى .

ومن هنا فإنّنا نَسْعَدُ حينما نتناوش جنبة لغويّة تداوليّة عظيمة البيانِ، عاليّةَ المضمونِ في الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ، وهي تغطّي – فيما نَخالُ – حيزًا كبيرًا مِنْ أدبِه، وهي مباحثةُ الأفعالِ الكلاميّةِ بوصفها آليةً، أو مظهرًا من مظاهر النظريّة الحديثة (التداوليّة)، التي يمثّلُ الفعل الكلاميّ فيها محور عملها، وزُبدة منهجها، وثمرة فكرتها[1]، وإذا كان عَمَلُ الذين درسوا أدبَ الإمّام الحسين(عليه السلام) يَرْكَنُونَ الى ملاحظَ تركيبيةٍ تتعلَّقُ بالجملِ وأنواعِها، ونظامِ الإعرابِ، والدلالةِ وتشعباتِها، فإنَّ مباحثتنا تمثل مَرْجِعًا تأصيليًّا منهجيًا مستوعبًا لأبعاد التداوليّة، ولاسيّما بُعدُ (الأفعال الكلاميّة) الذي يَستَشْرِفُ حَدَثًا كلاميًّا مقصودًا، له تجلياتُهُ، وتأثيراتُهُ ، وإنجازاتُهُ .

إنَّ الأفعالَ الكلاميّةَ تُمثِّلُ بابًا عريضًا من أبوابِ التواصل والإبانة والتحاوُرِ، وهذا ما تَسْعَى إليه التداوليّة المعاصرة ، فالمتكلمُ والمتلقي في دائرة متصلة من الحوار والتواصل، وهو ما ألفيناه في خطابِ الإمامِ الحسينِ(عليه السلام) الأخلاقيّ، ولَعَلهُ مِنْ بَدَهي القول: إنَّ معاينةَ الحدث الكلاميّ وأقطابَهُ تؤذن بتحقّق دلالة الحدث الكلاميّ الكليّة، وهذا ما نحاول مسترفدين إيّاه في مباحثتنا هذه، التي بدت على استظهار الدلالات المترشِّحَةِ من الخطاب الحسينيّ باستشراف جسور التواصل والإبانة ومِنْ أجلِ استثمار القوى القوليّة والتأثيريّة والإنجازيّة التي عُرفت في الدرس التداوليّ ولاسيّما في مظهر (الأفعال الكلاميّة)، وقد ائتلفت من ثلاثة مباحثَ عريضةٍ ، هي:

أولُها : الخطابُ الأخلاقيّ والتداوليَّة مقاربةٌ تأصيليةٌ .

وثانيها: الأفعالُ الكلاميّةُ المباشرةُ في الخِطابِ الأخلاقيّ الحسينيّ.

وثالثُها: الأفعالُ الكلاميّةُ غير المباشرةِ في الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ .

وحَسْبُنا بعد هذا المُتَقَدِّمِ أنْ نَفْلي إلماحة مُعْجِبةً في طيّات الخِطابِ الأخلاقيّ الحُسينيّ الذي يتضمَّن المصالح التي تضمَّنتها الشريعة المطهرة .

---

(١) ينظر: نظرية الفعل الكلاميّ (بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلاميّ) : هشام إبراهيم عبدالله الخليفة، لونجمان، بيروت ، ٢٠٠٧ م : ١١

نرجو أنْ يكون هذا العملُ فاتحةً لأعمالٍ أُخر ، والحَمْدُ لله (تنزّه) في بَدْءٍ وفي خَتَمٍ ، وصلَّى الله على محمّد وآله الأطهرين الأنجبين .

المبحث الأول

الخِطابُ الأخلاقيُّ والتداوليّةُ مقاربةٌ تأصيليةٌ

الخِطابُ في اللّغة:

(خَطَبَ) الْخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يُقَالُ خَاطَبَهُ يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، وَالْخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ... وَالْخُطْبَةُ: الْكَلَامُ الْمَخْطُوبُ بِهِ ، وَيُقَالُ اخْتَطَبَ الْقَوْمُ فُلَانًا، إِذَا دَعَوْهُ إِلَى تَزَوُّجِ صَاحِبَتِهِمْ ، وَالْخَطْبُ: الْأَمْرُ يَقَعُ ؛ وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ التَّخَاطُبِ وَالْمُرَاجَعَةِ [١]، خَطَبَ فُلان: أحسَنَ الخِطاب، والخطاب هُو المُواجَهةُ بالكَلام[٢] ، والخِطابُ مراجَعة الكلامِ ، وخاطَبَهُ بالكلامِ مخاطبةً وخِطَابًا وهُما يَتخاطبان[٣]. ويبدو لنا أنَّ المشاركةَ في الكلام ومواجهة السامع إنْ حاضرًا وإن غائبًا هي أُسُّ عملية الخطاب، فلا يُعقل أن يصدرَ الخطاب من متكلِّمٍ من دون معاينة السامع، والالتفات إليه، من أجل استكمال عملية التواصل والإبلاغ.

الخِطابُ في الاصطلاح:

تنوعت تعريفات الخِطاب عند البيانيين العرب، وكان لتباين الفكر والتفكير في المنظومات العقلية لمنتجي الخِطاب الأثر البالغ في تلّون نظرتهم لمفهوم الخِطاب ، ويظهر أنّ التعريفَ في الاصطلاح لا يخرج عن المعنى اللُّغويّ في عملية الإبلاغ والتوصيل، فضلاً عن تلمّس الإقناع والإمتاع ، فهو في أصلِ اللُّغة توجيه الكلام نحو المخاطَب (بفتح الطاء) ، ثم نُقِل الى الكلام الموجّه نحوه للإفهام اصطلاحًا، وسنحاول ذكر أهم تعريفات الخطاب من أجل الوصول الى مقاربة ـتأصلية له مع النظرية اللسانية الحديثة التداوليّة، فقد عرّف الآمديّ (٦٣١ ه) الخطاب بأنّه: "اللَّفْظُ الْمُتَوَاضَعُ عَلَيْهِ الْمَقْصُودُ بِهِ إِفْهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهْمِهِ"[٤]، نافيًا أنْ يكون الخطاب : " هُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يَفْهَمُ الْمُسْتَمِعُ مِنْهُ شَيْئًا"[٥]، وعرّفه بدر الدين الزركشيّ (٧٩٤ه) بأنّه: "الكَلَامُ المقصُودُ مِنْهُ إفهَامُ مَنْ هوَ مُتَهَيِّئٌ لِلفَهمِ؛ وَعَرَّفَهُ قومٌ بِأَنَّهُ مَا يُقصَدُ بِهِ الْإِفْهَامُ أَعمُّ مِنْ أَنْ يكونَ منْ قَصَدَ إفْهَامَهُ مُتَهَيِّئًا أَمْ لَا. قِيلَ: وَالْأَولَى أَنْ يُفَسَّرَ بِمَدلُولِ مَا يُقصدُ بِهِ الْإِفهامُ"[٦] ، ونلحظ أنَّ في تعريفي الآمديّ والزركشيّ إشارة الى أركان الخطاب الثلاثة: (المخاطِب، والمخاطَب، والخطاب)، زد على ذلك وجود عملية تواصلية وإفهامية بين الطرفين، وهذا الفهم لأركان الخطاب ووظيفته الإبلاغية الإبداعية فطن لها اللّغويون المحدثون في ظلّ تعريفاتهم مستثمرين أفكار القدماء، فقالوا بأنَّ الخِطاب هو : " كلّ تلفّظ يفترض متكلمًا ومستمعًا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما" [٧].

والخِطاب يتكامل مع المنهج التداوليّ: "لأنّ استراتيجيات الخطاب تُعنى بدراسة اللغة في الاستعمال، فإنّ هذا يتطلب منهجًا يعتدّ بالسياق الذي تستعمل فيه، وأثره على بنية الخطاب ومعناه، وهذا ما يوفّره ما عُرِف في المناهج اللّغوية الحديثة بالمنهج التداوليّ لكونه يتأسس على مفاهيم عديدة تؤلف فيما بينها محاورة التي

---

(١) مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٣٩٩ : ٢ / ١٩٨

(٢) أساس البلاغة: أبو القاسم الزمخشري ، دار صادر، بيروت ، الطبعة الأولى، ط١، ١٩٩٢م : ١/ ١٦٧

(٣) لسان العرب، مادة (خطب) : أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور ،دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤ه ١ / ٣٦١ .

(٤) الإحكام في أصول الأحكام : أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي (ت٦٣١هـ) ، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي ، المكتب الإسلامي ، بيروت،(د.ت) :١ /٩٥ .

(٥) الإحكام في أصول الأحكام: ١/ ٩٥.

(٦) البحر المحيط في أصول الفقه : بدر الدين الزركشي(ت ٧٩٤ه) ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٠م : ١ / ٩٨

(٧) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة : د . عبدالله إبراهيم، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم ، بالاشتراك مع دار الأمان ، الرباط ، ٢٠١٠م:٦٥ .

يتشكل منها، وأطره العامة التي توضّح معالمه"[١]، ومن هنا بدا لزوم الدعوة الى التركيز على علم اللغة المكبّر الذي يدرس اللغة بوصفها خطابًا فعالًا، ووسيلة للتواصل، ونقل المعنى والقصد، وليس نظامًا جامدًا من العلاقات النحويّة والشكليّة والدلاليّة[٢]. ومثلما يلتقي الخطاب مع التداولية، يلتقي مع الأخلاق، لاشتراكهما في جانب الاستعمال، يقول طه عبدالرحمن: " فليس التخاطبُ تواصلاً فقط، بل هو أيضًا تعامل"[٣]، ويرى أنَّ الخطاب الأخلاقي الموجَّه إلى المجتمع الإسلامي يعاني من هشاشة المفاهيم، وضعف في إدراك الرؤية الإسلامية فضلًا عن ذلك التشويه الفكري بفعل الأفكار الوافدة من بيئات ثقافية مختلفة، وهو ما يصطلح عليه بـــ(المجال التداوليّ)، فكلّ مجال تداوليّ له شحنةٌ تداوليةٌ متأثرةٌ بالمفاهيم الثقافية لذلك المجال، فتداخل المجالات التداولية قد يحدث آثارًا وجروحًا جانبيةً، فإذا كان المجال المنقول اليه ضعيفًا أدّى هذا النقل إلى مسخ ثقافته، وإنْ كان متوسطًا أدّى الى تشويهه، وإنْ كان المجال المنقول إليه قويًّا استقوى بالفكر الوافد عبر توظيفه توظيفًا يتلاءم مع الفضاء الإسلامي في ضوء تكييفه وتبيئته، وهو مشروع طه عبدالرحمن المعروف بـــ(التقريب التداولي)[٤]، إنّ التحليل السَّاكرونيّ الصّرف (الآنيّ)، لا الدايكروني (الزمانيّة التعاقبيّة) تفقد الخطاب إحساسه بالزمن وبفعاليته، ولا يقارب الواقع، إنَّ الخطابَ الذي لا يُقرأ ضمن واقعه الحيويّ هو خطابٌ ميّت، علينا إيجاد البديل النقدي الناجح لاستعادة القيم الأخلاقية في النصوص وفرزها ثقافيًّا؛ من أجل بعث الفضائل الأخلاقية الإسلامية من جانب، وتقويم السلوك بما يتناغم، ويتغازل، ويلاطف الثقافة القرآنية الإسلامية من جانب آخر .

الاخلاق لغةً : رَصَدَ ابنُ فارس أصلين لمادة (خلق): "أحدهما: تقديرُ الشَّيء، والآخـــر: مَلاسَـــةُ الـــشَّيء"[٥]. ويرى محمد عابد الجابري في ضوء مناقشته النافعة للنصوص اللغويّة المتصلة بتصريفات مادة (خ ل ق) أنّ للفظ (الخُلق) أربعة استعمالات نحسَبُ أنَّها ذات سُهْمةٍ تقارب بالأصلين المذكورين، هما: القـــوة الغريـــزة أي الهيأة الموجودة في النفس، والحالة المكتسبة التي يصير بها الإنسان خليقًا أنْ يفعـــل شـــيئًا دون شـــيءٍ ، وأنْ يستعمل اسمًا للفعل الصادر عن تلك الحالة ، وقد يستعمل اسمًا للهيأة ، والفعل معًا ، مثل : العفـــة والعدالـــة والشجاعة[٦].

والخلق قرآنيًّا بمعنى الإيجاد والتقدير، وقد ورد في القرآن الكريم في آيات عدة بوصـــفه فعلًـــا خاصًـــا بالألوهية ، وقد يرد منسوبًا إلى الإنسان بمعنى نسبيّ أو مجازيّ ومن الدلالات التي لها مسيس ببحثنا ، دلالة التحلّي والالتصاق بالصفات الحسنة ، والفضائل الحميدة ، وتبلغ الكمال والتمام في الخلق العظيم ، وهـــذا مـــا تجسّد وترشّح للنبيّ محمد(صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم) بحكم قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم/ ٤].

ويرى الشيرازي (الملا صدرا) أنَّ شرط الفهم هو التخلق بالقرآن، وإنّ القرآن بحقيقته هو خُلق النبـــي (صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم)، قال: " والقرآن بحسب حقيقته الأصلّية خلق النبي(صلَّى اللهُ عليه وآلـــه وســـلَّم)،

---

(١) استراتيجيات الخطاب: عبدالهادي بن ظافر الشهري (المقدمة) الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت ، ٢٠٠٤ م . : ١٠

(٢) ينظر: نظرية الفعل الكلاميّ (بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والاسلاميّ): هشام إبراهيم الخليفة : ١٨ .

(٣) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن، ط١، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٩٨م: ٢١٧ .

(٤) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن: ٢١٧.

(٥) مقاييس اللغة، مادة (خلق): ٢/ ٢١٣.

(٦) ينظر: نقد العقل العربي (العقل الأخلاقي العربي): محمد عابد الجابري ، الطبعة الخامسة ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠١٢ م : ٣٣.

وكلّ ما يفهمه المفسرون، ويصل إليه إدراكهم ظِلٌّ من ظِلاله القريبة والبعيدة، وشَبَحٌ من أشباحه العالية والدانية " [١].

الأخلاق اصطلاحًا:

الخُلُقُ والخُلْق هو:" ملكة نفسانية تقتدر النفس معها على صدور الأفعال عنها بسهولة من غير تقدم روّية "[٢]، والخُلُقُ :" مَلَكة في النفس تحصل من تكرّر الأفعال الصادرة من المرء على وجه يبلغ درجة يحصل منه الفعل بسهولة، كالكرم فإنّه لا يكون خُلُقا للإنسان إلاّ بعد أنْ يتكرر منه فعل العطاء بغير بدل حتىّ يحصل منه الفعل بسهولة من غير تكلف"[٣]، والأخلاق عند علماء المسلمين وغيرهم من الفلاسفة القدماء ملكة تصدر بها الأفعال عن النفس تلقائيًّا، من غير تفكير أو روية أو تكلّف، وكلّ ما يصدر عنها عن النفس من سلوك ليس مطبوعًا فيها كغضب الحليم وكرم البخيل لا يعدّ خلقًا، وهي صفات راسخة في النفس موجبة لصدور أفعال متناسبة معها، من دون إعمال رويّة وتفكّر، وهي قد تكون ذاتيّة، أو وراثيّة، أو تكتسب بالعادة والمران[٤]. نخلصُ من هذا المتقدِّم أنَّ الخطابَ الأخلاقيّ بوصفه مركبًا وصفيًّا ناقصًا، يعني مواجهة الآخر – إن حاضرًا أو غائبًا – بأبهى طرق اللباقة الأخلاقيَّة، وأجمل قيم الفضائل والمحامد؛ لكونها راسخة في نفس المُنشئ، وقارَّة ومطبوعة فيه.

ثالثا : التداولية مفهومًا:

الدَّالُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ : يَدُلُّ عَلَى تَحَوُّلِ شَيْءٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: انْدَالَ القَوْمُ، إِذَا تَحَوَّلُوا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَدَاوَلَ الْقَوْمُ الشَّيْءَ بَيْنَهُمْ: إِذَا صَارَ مِنْ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، وَالدَّوْلَةُ وَالدُّولَةُ لُغَتَانِ. وَيُقَالُ بَلِ الدُّولَةُ فِي الْمَالِ وَالدَّوْلَةُ فِي الْحَرْبِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَا بِذَلِكَ مِنْ قِيَاسِ الْبَابِ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ يَتَدَاوَلُونَهُ، فَيَتَحَوَّلُ مِنْ هَذَا إِلَى ذَاكَ، وَمِنْ ذَاكَ إِلَى هَذَا [٥]، وقد استثمر اللغويون المعجم القرآنيّ في استشراف دلالات تصريفات هذه المادة ، ولاسيّما (التداوليّة) فقد وردت بمعناها اللّغوي في عدد من الآيات القرآنية الكريمة ، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٨] قَالَ تَعَالَى:﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧] قَالَ تَعَالَى:﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إنّ المتأملَ في الآيات المباركات يلمس منها أنّ (التداول) يأتي بمعنى التحوّل، وعدم الثبوت ؛ فهي لا تختلف كثيراً عن المعنى اللغويّ، إذ يفهم منها انتقال الملك، والتعاقب والتناوب على أمر ما.

التداولية في الاصطلاح:

أقدم التعريفات التي قُدِّمت للتداولية هي لشارلز موريس عام ١٩٣٨ يرى فيه أنَّ التداولية: فرعٌ من فروعِ السيمائية، إذ تُعنى بدراسة علاقة العلامات بمفسريها، وهذا التحديد يوسّع من مجال التداولية لتشمل العلامات اللغوية وغير اللغوية[٦]؛ غيرَ أنَّ التداولية لم تصبح مجالًا يعتدُّ به في الدرس اللغوي إلاّ في العقد

(١) تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي (ملا صدرا) ، تحقيق : بيدافر ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، بيروت ، ١٤١٥ه: ٧/ ١٧٨ .

(٢) نهاية المرام في علم الكلام، الحسن بن يوسف الحليّ ، تحقيق : فاضل العرفان ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الامام الصادق عليه السلام ، ١٤٢٩ : ٢/٢٧٣.

(٣) المنطق، محمد رضا المظفر، ط٣، دار التعارف، بيروت، ١٩٩٠م: ٣٤٤

(٤) ينظر: مدخل الى علم الأخلاق، شفيق جرادي،ط١، دار المعارف الحكمية، بيروت، ٢٠١٤م – ١٤٣٥ه : ١٢ .

(٥) ينظر مقاييس اللغة، مادة (دول) : ٢/ ٣١٤ .

(٦) ينظر المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو: مركز الآنماء القومي : ٨٠

السابع من القرن العشرين بعد أن قامَ على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة، هم: (أوستن، وسيرل، وغرايس)[١].

وهي فرع لساني يُعنى بدراسة التواصل بين المتكلم والمتلقي، أو بمعنى آخر يُعنى بدراسة الرموز التي يستخدمها المتكلم في عملية التواصل، والعوامل المؤثرة في اختيار رموز معينة دون أخرى، والعلاقة بين الكلام وسياق حاله، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطَب في الكلام[٢]؛ ومصطلح التداول (التداولية) جاء على صيغة تفاعُل (تفاعُلية) وهذا البناء يرد للدلالة على المشاركة، أي: المشاركة بين المتكلم والمتلقي.

والحقّ أنّ الإفادة من المنهج التداوليّ الحديث في تحليل أنواع الخطاب المختلفة تقود الى الوعي بالذات في ضوء فهم أمثل للتراث، ومن هنا فإنَّ الحديث عن علاقة التداوليات بتحليل الخطاب يتطلّب تعرّف أصول التداولية في الفكر اللساني الحديث[٣] ، ثم أنّ سبر الخطاب والإحاطة بأغراضه ، و الكشف عن استعمالات الخطاب باستشراف تداوليته في البيئة التي انتجته، حَفّزَ الباحِثَيْن على إنجاز هذه الدراسة الواصفة التحليلية التي لا تخلو من أنماط تعليمية حديثة، نخال ـــــــــ بسبب قلة البحوث المنهجية في العربية بخصوص التداولية مقارنة بالجمّ الغفير من الدراسات الغربية ـــــــــ أنَّنا معنيون بالسير بخطىً حثيثاتٍ من أجل مقاربة الدرس اللساني التداولي الحديث[٤].

لا جَرَم أنّنا معنيّون بقراءة الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ قراءة تداوليّة باسترفاد (نظريّة الفعل الكلاميّ)، قراءة واعيّة باصرة من أجل تكشيف القيم الأخلاقيّة، وتحليلها وفرزها وربطها بالحياة الواقعية باستشراف طرق المقارنة والتحفيز، واستظهار القوى التأثيرية والإنجازيّة في هذا الخطاب البيانيّ الهادف الى جعل المعاني والدلالات مفهومات لدى مطلق الناس، ومن ثمّ الإسعاف في استجلاء الحقيقة الغالبة التي جعلت النصّ حيّا متحرّكًا ضمن شروط التلقيّ المختلفة، ولا ريبَ أنَّ المقاربات بين الخطاب والوعيّ الأخلاقيّ ، والأفعال التواصليّة التي هي نتاج التداوليّة، وثمرتها جليّة واضحة، فالخطابات الأخلاقيّة لا بُدَ من أنْ تكون مؤسسة على الفعل التواصليّ (الكلاميّ) [٥].

المبحث الثاني

الأفعال الكلاميّة المباشرة

هي أقوال تُؤدّى بها أفعال فيها يمكن للمرء أنْ ينجزَ أفعالاً بواسطة اللغة، نحو أُزوجك ابنتي، فمجرد التلفظ بالقول تصير الابنة زوجة؛ ومن ثَّم يَحْدُث فعل كلاميّ [٦].

يتضح في ضوء المسار التطوريّ للتداولية أنّ المقاربة التداولية قامت على الأُسُسِ التي وضعتها فلسفة اللّغة مع كلّ من أوستين، وسيرل، وغرايس، فقد عَمِل كلٌّ واحدٍ من جهته على تقديم رؤية لمقاربة اللّغة في إنجازاتها المختلفة .

ابتدأ أوستين أولًا بالتمييز بين الجُمل الوصفيّةِ، والجمل الانشائيّة فالأولى تخضع لحكم الصدق والكذب بينما الثانية ترتبط بالنجاح والإخفاق، غير أنّ أوستين سرعان ما سيكشف عن أنّه لا جدوى من هذا التقسيم،

---

(١) ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعارف الجامعية، ٢٠٠٢م : ٩ والمقاربة التداولية: ٨٠

(٢) ينظر: معجم المصطلحات اللغوية ، د . رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٠م: ٣٩٠ .

(٣) ينظر: الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية تداولية حجاجية)، نعمان بوقرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١، ٢٠١٢م : ٦٧.

(٤) ينظر: نقد العقل العربي (العقل الأخلاقيّ العربيّ): محمد عابد الجابريّ: ٣٤.

(٥) ينظر: أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل، لـ(هابرماس): د . محمد عبدالسلام الأشهب، الطبعة الأولى، دار ورد، الأردن، ٢٠١٣م : ٣٠ .

(٦) ينظر: معجم تحليل الخطاب، باتريك شارودو ، ترجمة عبدالقادر المهيري ، وحمادي صمود، دار سيناترا، تونس، ٢٠٠٨م : ٢٠

وينزع عنه نسبيًّا في ضوء التأكيد على أنّ كلَّ جملة تامة مستقلة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، ويميّز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية، العمل الأول هو العمل القولي، وهو الذي يتحقّق ما إنْ تتلفظ بشيء ما. أمّا الثاني، فهو العمل المتضمّن في القول وهو الذي يتحقّق بقولنا شيئاً ما. وأمّا الثالث، فهو عمل التأثير بالقول، وهو الذي يتحقّق نتيجة قولنا شيئًا ما ، ومن ثَّمّ فإنّ كلّ جملة عند التلفظ في نظر أوستين توافق على الأقل إنجاز عمل قولي، وعمل متضمّن في القول، وأحياناً توافق القيام بعمل تأثير القول[١] .

وبحسب التقسيم الأوستينيّ، الذي نجزم قاطعين أنَّ جذورَه ضاربةٌ في التراث العربي بلحاظ حقائق، وقواعد أسّسها العرب، منها الحقيقة والمجاز، والسياق وتقنياته، من نحو سياق المقام (لكل مقام مقال)، وسياق الحال وغيرها [٢].

إنّ اللّغةَ بحسب نظرة التداوليين، ولاسيّما (جون أوستين) ليست مجرد وسيلة للوصف ونقل الخبر، بل أداة لبناء العالم والتأثير فيه، وقد تقدّم بنظرية بسط القول فيها: عبر جملة محاضرات ومقالات ضمنّها نظريته بخصوص الأفعال اللّغوية التي ظهرت بعد وفاته بعنوان: (كيف نُنْجِزُ الأشياء بالكلمات؟)، والذي ترجم الى الفرنسية عام ١٩٧٠[٣]. وأُولى الخطوات التي تحدّث عنها موقفه من الأثر الذي تحدثه الجمل في إقرار حدث ما، وهو ما تكون بموجبه صادقة أو كاذبة ، أي التي تقوم على وَفْق معيار الصدق والكذب، زد على ذلك جمل التعجب والاستفهام والأمر والنهي ...وغيرها، فقد أقر أوستن في نظرية الأفعال الكلاميّة أركان العملية الكلاميّة؛ إذ أصبحت لديه ثلاثة هي: (فعل الكلام) الألفاظ والتراكيب، والأصوات، و(قوة أفعال الكلام) المحتوى القضوي أو الدلالة، و(لازم أفعال الكلام) الفعل التأثيري[٤] .

واسْتَجْلَى جون سيرل أربعة محاور من نظريّة أستاذه (جون أوستن)، مع لحاظ التعديل عليها، الاول: تطوير شرط الملائمة والانجاز، والثاني: تقسيم الفعل الكلامي الى أربعة أركان مع التعديل الطفيف، والثالث: جعل الفعل الكلاميّ نوعين: المباشر، وغير المباشر، والمحور الرابع: تصنيفه الأفعال الكلاميّة الأصناف الخمسة: (التقريرات)، (الطلبيات)، و(التعهدات)، و(الإفصاحات)، و(التصريحات)[٥] .

ومن هنا فإنّنا سنحلّل الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ في ضوء نظريات تحليل الخطاب تداوليًا، وفي ظلّ نظريّة أفعال الكلام التي طرحها أوستن، وطورها سيرل، ولا يخفى التواشج والتآلف بين الخطاب الأخلاقي، وفلسفة التواصل التداوليّ ، فالخطاب الأخلاقيّ الذي يفتقد مشروعية التواصل والإبلاغ هو خطابٌ ميِّت جامد وهذا ما تنبه عليه (هابرماس) [٦] .

---

(١) ينظر: التداولية اليوم: آن ومرشلار جاك، ترجمة سيف الدين دغفوساميكو، ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م: ٣٢ -٣٣ .

(٢) ينظر: نظرية الفعل الكلاميّ: (بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والاسلاميّ): هشام ابراهيم عبدالله الخليفة: ١٦ ، وتداوليّة قبل التداوليّة (هي تداولية قروسطيّة عربيّة إسلاميّة) (بحث) ، بيار لا شي ، ترجمة: د. عز الدين المجدوب : ٤٩٩.

(٣) ينظر: المقاربة التداولية : فرانسوا ز أرمينكو : ٨ ، والاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ ، العياشيّ أدواري، دار الأمان، المغرب، ط١، ٢٠١١م – ١٤٣٢ه: ٧٧ .

(٤) ينظر: في التداولية: (إشكاليّة المصطلح بين المفهوم والترجمة والتعريب)، د . عيد بلبع ، بحث في مجلة الأقلام ، العدد /٥ ، ٢٠٠٨م : ٢٢ – ٢٣ .

(٥) ينظر: خطبتا الزهراء (عليها السلام) دراسة في البعد التداولي في نظرية أفعال الكلام : د . خالد حويّر الشمس، بحث في مجلة العميد ، العتبة العباسية المقدسة العدد/ ٩٤ ، المجلد ٣ ، السنة الثالثة ، ١٤٣٥ه – ٢٠١٤م : ٢٤ .

(٦) ينظر: أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لهابرماس : د. محمد عبدالسلام الأشهب : ١٢ .

لا جَرَمَ أنَّ سيرل قد ميّز بين الفعل الإنجازي المباشر الذي يكون قصد المتكلم مساويًا للمعنى الحرفي ، وبين الفعل الإنجازي غير المباشر الذي يقصد فيه المتكلم إنجاز جملة تتضمّن قوتين إنجازيتين، قوة حرفية، وقوة إنجازيّة مستلزمة سياقيّا [١] .

وسنحاول استجلاء معاني الأفعال الكلاميّة المباشرة في الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ، في ظلّ استنطاق تراكيب هذا الخطاب، تأمّل خطبة الإمام الحسين (عليه السلام) في ذم بني أميّة، والتنبيه على حقِّه: " إنَّ هَؤُلاءِ قد لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيطَان، وتَرَكُوا طَاعَةَ الرَحمَنِ، وأَظْهَرُوا الفَسَادَ وَعَطَّلُوا الحُدُودَ، واستَأْثَرُوا بالفيءِ ، وأحَلُّوا حَرَامَ اللهِ وَحرَّمُوا حَلَالَهُ ، وأَنَا أَحَقُّ مَنْ غَيّرَ، قَدْ أَتْتني كُتُبُكُم وَقدمَت عَليَّ رُسُلُكُم ، أَنَّكُم لَا تُسْلِمُونِي ولا تَخذلُونِي ، فَإِنْ تَمتُم عَليَّ بِبَيعَتِكُم تُصِيبُوا رُشدَكُم" [٢]، فقد أشار الإمام الحسين (عليه السلام) الى الجماعة التي ثبتت ودامت على الانقياد والخضوع لإبليس، وتخلّوا عن الانقياد والخضوع لله تعالى، فأعلنوا الانحراف واللهو واللعب والضرر، تركوا حدود الله (عز وجلّ)، وضيّعوها، وخصّوا أنفسهم بالخراج وغنيمة المسلمين، وأنا أولى من يحول دون ذلك[٣] .

فنلمح أنّ تعاقب الجمل الخبرية (إنّ هؤلاء قومٌ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيطَان)،(وَتَرَكُوا طَاعَةَ الرَحمَنِ)، (وأَظْهَرُوا الفَسَادَ)، (وَعَطَّلُوا الحُدُودَ)، (واستَأْثَرُوا بالفيءِ)، و(أَنَا أَحَقُّ مَنْ غَيّرَ) ... تمثّل أفعالًا كلاميّة مباشرة، والسّرُّ في ذلك أنّ الجبهة المناوئة له(عليه السلام)، جبهة الشر والعصيان، تيار الخروج على الشرعيّة أمرها واضح ومكشوف، فأراد الإمام إبانة هذه الحقيقة، وإذاعتها من أجل الإقرار والإقضاء وترسيخ القوة الانجازيّة التأثيرية في نفوس المتلقين لخطابه (عليه السلام)، وتتضافر القرائن السياقية في تعجيل القوة الإنجازية التأثيرية للخطاب، فنرقب الضمير المتصل(نا)، وأفعل التفضيل (أحقّ)، واسم الموصول (مَنْ)، زد على ذلك ضمير المتكلم (الياء) في (أتتني)، و(عليّ) ، فضلا عن ذلك التعاقب الفعليّ المُعْجِب تسلسلًا ودلالة (لزموا، تركوا، أظهروا، عطّلوا، استأثروا) كلّ هذه الالتفاتات المعجبة كان لها القدح المعلّى، والسهم الأوفر في وصف بني أميّة باتجاه مطابقة أفعالهم وأعمالهم الواقع الخارجيّ فيكون القول، والعمل مطابقين للوقائع الموجودة في زمنه (عليه السلام)، وهذه التقنيّة سمّاها (جون سيرل) بـــ(التقريرات)، " الغرض منها تحمل المتكلم مسؤولية صدق القضية المعبّر عنها، وتتميّز التقريرات بأنّ إتجاه المطابقة يكون اتجاهًا من القول الى العالم، أي أنْ يكون القول مطابقًا للواقع، والأحداث الموجودة في العالم الخارجي، كما تتميز التقريرات بصدورها عن حالة نفسية عُبّر عنها بالاعتقاد"[٤]، وهي زيادة لما بدأه استاذه (أوستين) من قبلُ من: حكميات، وتنفيذيات، وسلوكيات الأفعال الكلاميّة المباشرة وغيرها[٥].

ومن الأنماط الاستعماليّة المباشرة في الخطاب الحسيني الأخلاقيّ لأفعال الانجاز ، خطبته التي يقرّع فيها أهل الكوفة: "أمّا بعد: تبًا لَكُم أيتُها الجَمَاعَةُ وتَرَحًا ، أحِينَ استَرَخصتُمُونَا وَالِهِينَ فَأَصرَخنَاكُم مُوجِفِينَ سَلَلتُم

(١) ينظر: التداولية في الفكر النقدي : كاظم حاسم العزاويّ ، ط١ ، الشركة العربية المتحدة ، القاهرة ، ٢٠١٦م : ٨١ .

(٢) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م: ٥/ ٤٠٣.

(٣) ومضات السبط (البعد العقائدي والأخلاقي في خطب الإمام الحسين (عليه السلام): الشيخ علي الفتلاوي، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، كربلاء المقدسة، ١٤٣٢ه، ٢٠١١م: ٢/ ١٢٥.

(٤) نظرية الفعل الكلاميّ (بين علم اللغة الحيث والمباحث اللغويّة في التراث العربي والإسلاميّ): ١٢٥.

(٥) المصدر نفسه: ٤٤ – ٤٥.

عَلَيْنَا سَيفًا لنا في أيمانكمُ وَحَششتُم عَلينا نارًا اقتَدحْناها على عَدُوِّنَا وعدُوِّكم، فَأَصبَحْتُم إلَبًا لأعدائِكُم على أوليائِكُم بِغيرِ عَدلٍ أَفْشُوهُ فِيكُم ولَا أَمَلٍ أصبْحَ لَكُم فيهم..."[١].

إذ يزهر الفعل الكلاميّ الإنجازيّ بطرفيه (التقريريّ) مرّة، والتصريحيّ مرّة أخرى، في ضوء وصفه لحالة أهل الكوفة حينما بعثوا بكتبهم إليه (عليه السلام) من أجل تخليصهم من الواقع المزري، والوضع المشين، وزعمهم الانقياد واتباع الإمامة الحقة المتمثلة بالإمام الحسين (عليه السلام)، إلّا أنّهم تقهقروا ونكصوا بعد ذلك[٢]، زد على ذلك فإنّ الفعل الكلاميّ الانجازيّ (التصريحي)، وهو فعلٌ يتغيّر بمقتضاه الواقع، ويتضمّن أغلب الأفعال الشعائرية التي أوردها أوستن، وهو يتطلب بصورة خاصة مؤسسات غير لغوية تحدد قواعد استعماله مثل: محكمة، أو لجنة، أو مسجد، أو كتب السلوك[٣].

ويُستَجْلى الفعل الكلاميّ الإنجازيّ في الخطاب المبارك، بمعاينة المصدر النائب عن فعله (تبًا)، و(ترحًا)، الدالّين على الدعاء على هؤلاء الفئة من الذين استنجدوا به (عليه السلام)، والجمل الخبريّة (استصرختمونا)، أصرخناكم، سَلَلْتم، حَشَشْتم، فأصبحتم ... ، زد على ذلك نلمح تكرار الضمير المتصل (نا) الذي يُعدّ وسيلة كبرى من وسائل التواصل مع المتلقين والمستقبلين للخطاب؛ لكونه الإمام المفترض الطاعة، وإنّه صاحب الأمر والولايّة .

قُصارى ما يمكن قوله في الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ محطّ البحث: إنّ الإمام الحسين(عليه السلام) باستشراف جسد النص نجد القوة الإنجازية المباشرة للأفعال الكلاميّة في طور ردّه على هؤلاء ، ودعائه عليهم .

ويشتدُّ الفعل الكلاميّ الإنجازيّ ويعلو في خطبته التي خطبها (عليه السلام) في كربلاء بعد أنْ عزم القوم على قتله، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثمّ قال: " إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ تَغَيَّرَتْ وَتَنَكَّرَتْ، وَأَدْبَرَ مَعْرُوفُهَا وَاستمرت حذاء، فَلَمْ يَبْقَ منها إِلّا صَبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ، وخَسِيسَ عَيْشٍ كَالْمَرْعَى الْوَبِيلِ، أَلا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لا يُعْمَلُ بِهِ، وَأَنّ الْبَاطِلُ لا يُتَنَاهَى عَنْهُ، لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ محقًا، فإنِّي لَا أَرَى المَوتَ إلّا سعادةً والحَيَاةَ مع الظالمينَ إلّا بَرَمَا" [٤] .

إنّها ترنيمة في الحريّة، وهجران الظالمين، إنشودة في اختيار الطريق الحق، والسبيل القويم، إذ يشير الإمام (عليه السلام) إلى الدنيا بأنّها لم تبق على حالها السابق من تعظيم واحترام وتثمين لأهل البيت (عليهم السلام)؛ إذ تتجلّى القوة الإنجازية للفعل الكلامي في الخطاب الأخلاقي الحسينيّ، فقد انطوت على وصف الحدث، والإخبار عنه، فضلًا عن تقريره، وهذا أمر بَدَهي؛ لأنّ الإمام الحسين (عليه السلام)، ودرايته الحقيقية بلحاظ الإحاطة بالواقع السياسي والاجتماعي المعيش فيه قد فاح وتضوّع في كلّ كلمة نطق بها (عليه السلام)، فطابق قوله ماكان جاريًا آنذاك من تهافت القيم، وسقوطها، واضمحلال الحقّ واندراسه، وعلّو صوت الباطل، وصراخ الرذائل[٥]، فنلمح تلاحق الجمل الخبرية التي ترشّح عنها الصدق، والإقرار بأبهى صوره، وأجمل أنساقه باسترفاد أوصاف الدنيا الزائلة (تغيّرت، تنكّرت، أدبر معروفها، لم يبق منها إلاّ صبابة)، ومن وُجْهَةٍ

---

(١) مقتل الحُسين (عليه السلام): أبو المؤيّد الموفق أخطب خُوارزم، تحقيق: محمد السماوي، منشورات أنوار الهدى، قم – إيران، ط٣، ١٤٢٥ه – ٢٠٠٥م: ٩/٢ .

(٢) ينظر: ومضات السبط (البعد العقائدي والأخلاقي في خطب الإمام الحسين (عليه السلام): ٢/ ١٥١.

(٣) نظرية الفعل الكلاميّ : ١٢٦.

(٤) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): ٥/ ٤٠٣ – ٤٠٤.

(٥) ينظر: ومضات السبط (البعد العقائدي، والأخلاقي في خطب الإمام الحسين عليه السلام) : ١/ ٣٣.

ثانيةٍ نجد إلماحة التقرير والإقرار في قوله (عليه السلام): ألا ترون أنّ الحقّ لا يعمل به، وأنّ الباطل لا يتناهى عنه، التي تمثّل زخمًا وتعجيلًا في جذب المتلقي واستفزاز خواطره، والوصول الى أعلى مراقي الإبانة والتواصل والتحاور .

ومن وُجْهَةٍ ثالثةٍ يستشرف الخطاب الحسيني الأخلاقي ملامح العود إلى الله (عز وجل) ، ولزوم طاعته ومحبته، فهي أساس العيش الهنيء، وتمام الخُلُق العظيم، ومن هنا فقد حذّر طه عبدالرحمن من عدّ الأخلاق من المقاصد الكمالية ففي هذا سوء فهم لحقيقة الدين، وإنّما مدار الأمر ومحصله يكون للمعاني الروحيّة، والمطالع الأخرويَّة[١]. وهذا ما انتجته الأفعال الكلاميّة في الخطاب الحسينيّ الأخلاقيّ، فإنّ الوصول الى درجات البعد عن الله (عز وجلّ) والسير بخلاف القيم والتعاليم التي شرّعها (عزّ وجلّ)، يعني خروج المرء من دائرة الإنسانية، ومن ثمّ فإنّ العيش مع هؤلاء يعدُّ ضربًا من المحال، لأنَّهم خرجوا من الإنسانية إلى البهميّة، ومرآة ذلك كلّه قوله (عليه السلام): (لِيَرْغَبَ الْمُؤْمِنُ فِي لِقَاءِ اللَّهِ محقًا، فإنِّي لَا أَرَى المَوتَ إلّا سعادةً والحَيَاةَ مع الظالمينَ إلّا بَرَمًا)، ولا يخفى أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) كان يشاغف المجال التداوليّ (الثقافة المتداولة) في عصره في ضوء التصور الدلاليّ المتناغم من حال المجتمع، وما أصابه من تقهقر، ونكوص في القيم الأخلاقيّة التي تعدّ أسّ الإنسانية وجوهرها .

وهذا ما نستقيه من خطابه (عليه السلام) في خطبة له مقرعًا أهل الكوفة "فسحقًا وبعدًا يا عبيدَ الأُمَّة، وشُذَّاذَ الأحزَابِ، ونَبَذَةَ الكتابِ، ونَفَثَةَ الشَّيطَانِ، ومُحرِّفِي الكَلِمِ، ومُطْفِئِ السُّنَنِ، ومُلْحقي العُهَّار بالنَّسب المستهزئين الذين جعلوا القُرآنَ عِضين"[٢].

إذ تتحقق الأفعال الكلاميّة المباشرة في ضوء معاينة المصدرين النائبين عن الفعل (سحقًا وبعدًا)؛ إذ يمثّلان قوتين إنجازيتين كبيرتين، ونلمح في الخطاب الحسيني تعدادًا لأصناف من أهل الكوفة ممّن خذلوه (عليه السلام) باستشراف جموع العربية التي تدلّ على العموم والشمول والتي تترشح منها القوة الإنجازية التعبيرية ومن أجل تقوية الخطاب ، وتعجيل القوة الإنجازيّة وتأسيس لحظة ولادة النص ، لأنَّها ولادة مقدسة استثمر الإمام الحسين (عليه السلام) المعجم القرآني في وصف هؤلاء الذين استهزؤوا بالقرآن فجعلوه عضينًا ، اقتباسًا من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر: ٩١] [٣]، جاء التصريح بوصفه قوة إنجازيّة صادقة في كلام الإمام الحسين (عليه السلام)؛ إذ وصف هؤلاء بأوصاف عرفها فيهم، وخبرها عنهم، فتلبسوا بأخسّ الأوصاف، وأحطّ النعوت، وأصبح الدين لَعِقًا على ألسنتهم، والقرآن لا يعمل به، وإنْ قرؤوه، فهم لا يتدبرونه، ويخالفون أحكامه وتعاليمه؛ لأنّهم قطّعوا آياته، وفرّقوها جهلًا وبغيًا.

وما قلنا قبلًا نعيده بعدًا ، علينا إبعاد القراءات السطحية والساخطة على أهل الكوفة ، وممّا يدفعنا الى هذا القول: إنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) في خطبة له يبين منزلته ومنزلة أصحابه وجلّهم من أهل الكوفة : "أمّا بعد، فإنّي لا أعلَمُ أصحابًا أوفى ولا خيرًا مِنْ أصْحابي ولا أهْلَ بيتٍ أبرَّ ولا أوْصَلَ مِنْ أهلِ بيتي فجزاكُم اللهُ عنيَّ خيرًا" [٤] ، فالإمام (عليه السلام) لا يعرف مرافقين واتباعًا أكثر التزامًا بأداء عهدهم ، ولا أحسن صدقًا

---

(١) ينظر: سؤال العمل: طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٢ م : ٧٤

(٢) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): ٥/ ٤١٨ .

(٣) نلحظ تداخل (القرآنية) بوصفها مصطلحًا ابتكره الدكتور مشتاق عباس معن في الخطابات الحسينية؛ إذ إنَّ حفظ القرآن الكريم، وتدبّره من لدن الإمام الحسين (عليه السلام)، أعطى للمتون الحسينية الأخلاقية، وغيرها قدسيتها وشرافتها وعظمتها؛ لأنَّها تنبع من النبع الخلّاق، والبحر الزَّخَّار (القرآن الكريم). ينظر: تأصيل النص قراءة في أيديولوجيا التناص: الدكتور مشتاق عباس مَعْن، مركز عبادي، صنعاء – اليمن، ط١، ١٤٢٤ه – ٢٠٠٣م: ١٦٩ – ١٧٠.

(٤) تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) : ٥/ ٤١٨ .

في وعدهم من أصحابه ، ولا أهل بيت وأسرة أشفق، وألطف، وأطوع من أهل بيته، فأثابهم الله نيابة عنه (عليه السلام) حسن الدنيا والآخرة[١].

فاللافت للنظر أنّ الخطاب ترشّحت منه قوىً إنجازيّةً تتمثّل في الطلبيات (التوجيهيات)، التي يكثر منها في الخطابات " وغرضها محاولة جعل المخاطب يقوم بعمل ما، والمتكلم في هذه الحالة يريد أو يرغب في تحقيق وضع في المستقبل يكون فيه العالم الخارجي مطابقاً لكلماته"[٢]، فقد استغرق الإمام (عليه السلام) في وصف أصحابه أولا، ثم أهل بيته (عليهم السلام)، من أجل ترسيخ الأفضلية، وإقرارها ولاسيّما وإن مطابقتُهُ للواقع الخارجيّ، وقد حشّد الإمام الحسين (عليه السلام) أفعال التفضيل (أَوْفَى، خَيْرًا، أبرّ، أوْصَل) من أجل دعم هذه القوة واستظهارها، ولا يخفى القراءة الواعية والباصرة من لدن الإمام الحسين (عليه السلام) لأصحابه، وأهل بيته (عليهم السلام) بلحاظ معاينة المجال التداوليّ، فبعد أنْ يئس (عليه السلام) من نصرة أهل الكوفة ترشّح هذا النفر الكريم، والثلة المؤمنة من الأصحاب الأوفياء الأبرار، فأراد الإمام (عليه السلام) أنْ يمدحهم مدحًا عظيمًا ، بأنَّهم خير الاصحاب وإنَّ الزمان الذي جاء بمثلهم ، لا يمكن أنْ يجود بغيرهم ألبته .

ويصرُخ الفعل الكلاميّ بقوته الإنجازية في قوله (عليه السلام) داعياً لهم بالجزاء، وحسن العاقبة (فجزاكم اللهُ عني خيرًا)، وهذا ما عبّر عنه جون سيرل بـــ(التعبيريات) التي تمثّل غرضًا إنجازيًّا في التعبير عن حالة (سايكولوجيّة) نفسية تعبيرًا يتماشى، ويتماهى مع شرط الإخلاص، وليس لهذه الجهة اتجاه مطابقة، إذْ لا يقصد بها مطابقة العالم للكلمات، أو مطابقة الكلمات للعالم بلِ المقصود فيها صدق القضية، ويدخل في هذا الصنف، الأفعال من مثل:(شكر، اعتذر، عزّى، هنّأ، ...) [٣].

وبعد هذا العرض الآخذ في استشراف ملامح القوة الإنجازية المباشرة للأفعال الكلاميّة من الخطاب الحسينيّ الأخلاقيّ ، نلمح قدرة هذا الخطاب على سَبْر أغوار الدلالات والمقاصد والغايات من لدن الإمام الحسين (عليه السلام) فكانت التقريرات ، والإفصاحيات ، والتعبيريات في ضوء الاتّكاء على مرتكزات الدين الاسلاميّ، القائم على استشراف كتاب العربية الأكبر (القرآن الكريم)، واستنطاقه بوصفه يمثّل نظامًا أخلاقيًّا متكاملًا، ومرقاةً عالية في نيل سعادة الدنيا، وسعادة الآخرة .

المبحث الثالث

الأفعالُ الكلاميَّةُ غير المباشرة

وظيفة اللّغة لا تقتصر على تقرير الوقائع، أو وصفها لكنّ للّغة وظائفَ متعددة: كالأمر، والاستفهام، والنهيّ، والتمنيّ، والشكر، والتهنئة، والقسم، والتحذير... وغيرها، وليست اللّغة حسابًا منطقيًّا دقيقًا لكلّ كلمة فيها معنى محدد، ولكلّ جملة معنًى ثابت؛ إذ لا تنتقل من جملة الاّ ما يلزم عنها من جمل مراعيًا قواعدَ الاستدلال المنطقي، بل الكلمة تتعدّد معانيها بتعدد استعمالنا لها في الحياة اليومية، وتتعدّد معاني الجمل بحسب السياقات التي ترد فيها، فالمعنى هو الاستعمال[٤] .

هذا الفَهْم في توجيه وظيفة الخطاب بوصفه عملية إجرائية غايتها الإبلاغ والاتصال والإقناع، جعلت الإمام يستثمر البعدَ التداوليّ للخطاب؛لأنّه آلية كاشفة عن الاستعمال من جهة، ومصوّرة الحال والمقام من جهة أخرى، وبتواشُج هذين العنصرين يتمُّ إصابة الدلالة المرادة بَلْهَ القصديّة أيضًا .

---

(١) ينظر: ومضات السبط (البعد العقائدي، والأخلاقي في خطب الإمام الحسين عليه السلام) : ٢/ ٢٢٠ .

(٢) نظرية الفعل الكلاميّ: ١٢٥ .

(٣) ينظر: الاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ، العياشيّ أدراوي : ٧٩ – ٨٠ .

(٤) ينظر: الاستلزام الحواري في سورة البقرة في القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية تداولية) ، حجر نورما وحيدة : ٦٧

ومن هنا علينا قراءة الخطاب الأخلاقيّ الحسينيّ قراءة نقدية واعية، ولا تحصل هذه القراءة إلّا بدراسة الأفعال الكلاميّة عنده من أجل استظهار إرادة المتكلم، واستجلاء قصديته، فالأفعال الكلاميّة تؤثر وتغيّر، والفعّالية القائمة في العمل ليست اعتباطيّة، وإنّما فعالية موجهة أي أنّها تتحدد بوجهة مخصوصة ، فلا عمل بغير وجهة تضبطه، وقد اصطلح على تسمية هذه الوجهة الضابطة باسم القصد، فلا عمل بغير قصد(١). فضلاً عن ذلك فإنّ ما يقدّمه جسد اللغة البنيويّ، إنّما هو المعنى البنيويّ المقالي فقط، والجسد لا بدّ له من محيط يشتمل عليه ويؤثّر فيه، فيأتي فضل سياق الحال، والأنظار الخارجية، والقرائن لتفعل فعلها في تشكيل المعنى، وبذا يكون المعنى مؤتلفًا من الرافدين: المعنى المقالي، والمعنى المقامي، وما يُنسَب إلى المقامي ملاحظة الأحوال، والقرائن والأنظار الخارجية التي تعدّ رافدًا معنويًّا أمينًا ذا وظائف متعددة(٢).

وسنتناوش خطابات حسينية أخلاقية نستشرف فيها أفعالاً كلامية غير مباشرة، نخال أنّها تمثل حيزًا وسيعًا في خطابه الأخلاقيّ؛ لأنَّ السياقات والدلالات تتعدّد فيه بخلاف الأفعال الكلامية المباشرة ، ففي خطبة له عليه السلام في مكارم الأخلاق:" أَيُّهَا النَّاسُ نَافِسُوا فِيالْمَكَارِمِ، وَسَارِعُوا فِيالْمَغَانِمِ، وَلاَ تَحْتَسِبُوا بِمَعْرُوفٍ لَمْ تَعْجَلُوا ؛ وَاكْسِبُوا الْحَمْدَ بِالنُّجْحِ، وَلاَ تَكْتَسِبُوا بِالْمَطْلِ ذَمّاً ؛ فَمَهْمَا يَكُنْ لاِحَدٍ عِنْدَ أَحَدٍ صَنِيعَةٌ لَهُ رَأَيأَنَّهُ لاَ يَقُومُ بِشُكْرِهَا فَاللَّهُ لَهُ بِمُكَافَأَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ أَجْزَلُ عَطَاءً وَأَعْظَمُ أَجْراً. وَاعْلَمُوا أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ؛ فَلاَ تَمَلُّوا النِّعَمَ فَتَحُورَ نِقَماً، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَعْرُوفَ مُكْسِبٌ حَمْداً، وَمُعْقِبٌ أَجْرًا" (٣) فالإمام الحسين (عليه السلام) يدعو الناس إلى المسابقة والمباراة في فعل الخيرات، والتعجيل في تحصيل الربح والنفع وعدم كشف المعروف إذا لم يُسرع في فعله، وأنّ النجاح والفوز يطلب في الثناء الجميل، وإن فعل العبد الأعمال الصالحة هي من أجل طلب رضا الله (عزّ وجلّ) وهو الذي يجزيه ويشكره... (٤)

وتتجلّى القوة الإنجازية التأثيرية للأفعال الكلامية في الخطاب الأخلاقي الحسينيّ باستشراف دلالات (فعل الأمر) وهو طلب الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام.(٥) في (نافسوا، سارعوا، اكسبوا، اعلموا)، وكذا استشراف دلالات (النهي)، وهو طلب الكفّ عن فعل على وجه الاستعلاء، وصيغته (لا تَفعَلْ). (٦) في (لا تحتسبوا، فلا تملّوا)، فالسياق الإنتاجي التوليدي الذي يترشّح من أسلوب الأمر في الخطاب الحسيني الأخلاقيّ، وكذا السياق الإنتاجي التوليدي المترشّح من أسلوب النهي بوصفه فعلًا كلاميًّا غير مباشر (سياق النصح والإرشاد)، ويمكن بيان الفعل الكلامي في الأسلوبين في ضوء المخطّطين الآتيين:

الأمر ← إنشاء طلبي ← سياق إنتاجي ← النصح والإرشاد

(نافسوا، سارعوا، اكسبوا، اعملوا) **(قوّة إنجازية تأثيريّة)**

النهـــي ← إنشاء طلبي ← سياق إنتاجي ← النصح والإرشاد

(لا تحتسبوا ، لا تملّوا) **(قوّة إنجازية تأثيريّة)**

---

(١) ينظر: القصدية (بحث في فلسفة العقل): جون سيرل، ترجمة: أحمد الأنصاريّ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م: ٢٥ – ٢٦، وينظر سؤال العمل : طه عبدالرحمن : ١٨ .

(٢) ينظر: البيان بلا لسان (دراسة في لغة الجسد): د. مهدي أسعد عرّار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م – ١٤٢٨ه: ٢٧.

(٣) بحار الأنوار الجامعة لـــ(أخبار الأئمة الأطهار): للعلامة المجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٣ – ١٤٠٣ه : ٧٥ / ١٢٧ .

(٤) ينظر: ومضات السبط (البعد العقائدي ، والأخلاقي في خطب الإمام الحسين عليه السلام): ١٧٨/٢-١٧٩

(٥) ينظر: مفتاح العلوم: السكاكي، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط١، ١٩٨٢م: ١٥٢.

(٦) ينظر: المصدر نفسه:٣٢٠

فالفعل الكلامي مثلاً (نافسوا)، يكون من فعل إسناديّ يتمثّل من الجملة الفعليّة الأمريّة المكوّنة من محمول الفعل (نافسوا) وموضوعه الرئيس (الفاعل) المضمر المتصل (الواو) (الناس)، وفعل إحاليّ (إحالة إليهم) من طريق الإشارة إليه بالضمير (الواو)، وفعل دلالي الذي يتشكّل من القضية التي تتمثّل في أمر الناس في التنافس والتباري في مكارم الأخلاق في ظلّ إصلاح السريرة، والتشوّف إلى معالي القيم ومحاسنها، وتتشكّل القضية من الاقتضاء (المنافسة في اكتساب مكارم الأخلاق)، والاستلزام المنطقي (أمر الناس بالمسارعة والمنافسة في الاحتواء وحيازة الأخلاق ومكارمها).

ويظهر الفعل الإنجازي في ضوء الجملة الفعلية (نافسوا) التي تتكوّن حمولتها الدلالية في أمرين الأول: قوّة إنجازية حرفية تتجلّى في (الأمر)، والآخر: قوّة إنجازية غير مباشرة (تأثيرية) مستلزمة تستظهر في النصح والإرشاد.

ويمكن استحضار القوة الإنجازية التأثيرية غير المباشرة في ضوء المباحثة والمقاربة التداولية في أسلوب النهي، فالفعل الكلامي الحسينيّ (لا تحتسبوا) مثلاً فعل إسناديّ يتمثّل في الجملة الفعليّة المكوّنة من محمول الفعل (تحتسبوا)، وموضوعه الفاعل المتصل (الناس)، والفعل الإحالي (إحالة إلى الناس الذين يحتسبون المعروف ولم يعجّلوا في صنعه)، والفعل الدلالي المكوّن من القضية التي تتمثّل في تنبيه الذين يقومون بهذا العمل عن طريق الوعظ والإرشاد، وتتكوّن القضية من اقتضاء عدم احتساب المعروف بلا قيام له، واستلزام منطقي النهي، والكفّ عن هذا العمل، فالفعل الكلامي الإنجازي تتكون حمولته الدلالية من قوة إنجازية حرفية هي (النهي)، وقوة إنجازية غير مباشرة تأثيرية مستلزمة في تحذير الناس مع وعظهم وإرشادهم.

ونقدح بأمر – نخال أنه مهمّ – أنّ هؤلاء المخاطبين إن قاموا لأمر المتكلّم، واستجابوا لطلبه من جهة، وتركوا المنهيّ عنه من جهة أخرى، فقد أنشأ المتكلّم (الأمر)، و (النهي) حينئذ، وهذا ما عبّر عنه (ابن عربي) بالإنشاء الإلهي؛ لأنّه إنشاء الأعيان. (١)

حقاً وصدقاً أنّ الغاية من معرفة الأخلاق، وتعلّم هذا العلم ليست ذاتيّة، بمعنى أنّنا لا نتعلّمه؛ لأنّنا نريد تعلمه، بل المراد هو الوصول عبر طريق الأخلاق الشريفة إلى الغاية المحمودة وهي تحقيق رضا ربّ العالمين. (٢)

ولا بدّ من الإشارة الى أنّ الإمام الحسين في خطابه الأخلاقي آنفاً أراد أن يصل إلى أعلى درجات التواصل، والتعاون التداولي مع المخاطبين من أجل بناء الانسجام التخاطبي، الذي يقتضي أنّ المتكلّمين والمخاطبين متعاونون في ما بينهم بحسب قاعدة (بول غرايس) المعروفة بـــ (قاعدة التعاون)، حتى يحصل التواصل والإبلاغ التخاطبيّ(٣).

ويمكن أنْ نعطي مثالاً لسقوط التواصل وتهافته من جهة المخاطبين (السامعين)، فقد اجتهد الإمام الحسين (عليه السلام) في النصح والإرشاد، ولكن ليس كلُّ مَنْ توجّه إليهم بالنصح انتصحوا، ولا كل مَن خاطبهم بالتوحيد أسلموا وأقرّوا، لذلك نراه يقول عليه السلام يوم نزوله كربلاء يوم الأربعاء أو الخميس في الثاني من محرّم سنة إحدى وستين " أمّا بعدُ، فإنَّ الناسَ عبيدُ الدنيا، والدينُ لَعِقٌ على ألسنتهِم يحوطونه ما درّتْ

(١) ينظر: الفتوحات المكية: ابن عربي، ضبطه وصححه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، (د.ت): ١٠٣/٣.

(٢) ينظر: مدخل إلى علم الأخلاق:٩

(٣) ينظر: الأفق التداولي (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية): إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط١، ٢٠١١م: ١٣٣.

معائشهُم فإذا مُحِّصوا بالبلاءِ قلَّ الديّانونَ"[١]. فالإمام (عليه السلام) يؤكّد أنّ غير المؤمنين من الناس يعبدون الدنيا بما فيها من مال ونساء وجاه وهوى وشهوات، وما الدينُ والإيمانُ إلا لحسةٌ على الألسن ليس لها قرار، ودوام يحفظونها ما كثُرت، وتيسّرت أرزاقهم، فإذا اختُبروا بالاختبار تركوا الدينَ وتهافتوا على مَن تلبّس به.[٢]

وهذا الفهم والتصوّر الدلالي على تهافت التواصل، وانخرامه عبّر عنه ابن عربيّ في الفتوحات المكيّة أي: إنّك لا تقدر على مَنْ تريد أن تجعله محلّاً لظهور ما تريد إنشاؤه أن يكون محلّاً لوجود إنشائك فيه، فليس كلٌّ متكلم في الدنيا بإلهيّ مطلقاً، لكن له الإطلاق في ما يريد أن يُنشئه في نفسه إلى في غيره[٣]. ويُفهم في ضوء تقاطع إرادة التكوين (الإلهي) المتكلم، وإرادة التكليف (الناس) اللافظ؛ إذ الأولى لا تتخلّف في حين الثانية يمكن أن تتخلّف[٤].

ويزهر الفعل الكلامي غير المباشر في الخطاب الأخلاقي الحسينيّ (السياق الإنتاجي التوليدي)، سوء العاقبة والمآل في بيان حال الذين نقضوا العهد، وخلعوا البيعة من أعناقهم ، مبيّناً عاقبتهم المخزية وسوء مآلهم، قال في خطبة خطبها بـــ(البيضة): " فأنَا الحسينُ بنُ عليٍّ وابنُ فاطمةَ بنتِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّمَ نفسي مع أنفسِكُم وأهلي مع أهليكُم فلكُم فيَّ أسوةٌ وإنْ لم تفعلوا ونقضتُم عهدَكُم وخلعتُم بيعتِي من أعناقِكُم فلعمرِي ما هيَ لكُم بنُكرٍ لقد فعلتُموها بأبِي وأخِي وابنِ عمّي مسلمٍ، والمغرورُ من اغترَّ بكُم فحظُّكُم أخطأتُم وضيّعتُم ومَن نكثَ فإنّما ينكُثُ على نفسِه وسيغنيني اللهُ عنكم"[٥] .

وتأسيساً على معاينة النصّ وتكشيف دلالاته ، يمكننا الاستنتاج أنّ الخطاب الحسيني الأخلاقيّ خرج على مقتضى الظاهر مع مراعاة حال المخاطب يُعدّ إنجازاً لأفعال كلامية غير مباشرة؛ لأنَّ الخطاب حينها قد استشرف نفسية متلقيه وراعى الحال غير الظاهرة في المقام؛ من أجل أن يصل إلى إخراج كلامه على مقتضى تلك الحال، وهذا " ما يدلّ على مراعاة لأوضاع غير لسانية لا تظهر على مستوى البنية السطحية للكلام ، وإنّما يتمّ الوصول إليها على مستوى البنية العميقة ممّا يعني أنّ هناك علاقة متينة بين قصد المتكلّم، ومقام المتلقّي ونفسيّته ... وهو ما تركّز عليه اللسانيات التداولية في أبحاثها" [٦].

وعوداً على بَدْء فإنّ الخطاب الحسينيّ الأخلاقيّ كشف نيّات هؤلاء وأفعالهم الآن، ومن قبلُ، وهم يرون بأمّ أعينهم كيف تتهاوى أعمالهم، وتتطاير أفعالهم؟، وهو مصداق عظيم على سوء عاقبتهم ومآلهم المخزي، فالجملة الخبرية المؤدّاة بالجملة الاسمية (فأنا الحسين بن علي)، (وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)، (نفسي مع أنفسكم)، (وأهلي مع أهليكم)، (لكم فيّ أسوة) وغيرها تقرير وإقرار بمكانته، وإمامته وقد تحصلت القوّة الإنجازية بلحاظ الضمير المنفصل (أنا) الذي يمثّل شحنة تواصلية إبلاغية بين المتكلّم والمتلقي، زد على ذلك ضمير المتكلّم الياء في (نفسي، وأهلي، بيعتي، عمري، أبي، أخي، عمي) الذي يؤكّد إمامته وأحقيته بالاقتداء، والاتباع إلاّ أنّهم فقدوا التعاون، وأخفقوا في التواصل والانسجام، فكانت عاقبتهم الحظ الأوكس، والنصيب المضيع، والنكث المخزي.

---

(١) ينظر: مقتل الحُسين (عليه السلام): الخوارزمي: ١/ ٣٣٧ .

(٢) ينظر: ومضات السبط (البعد العقائدي ، والأخلاقي في خطب الإمام الحسين عليه السلام): ٣٤ .

(٣) ينظر: الفتوحات المكيّة : ٣/ ٢٣٧.

(٤) ينظر: الأفق التداوليّ (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية): ١٣٤ .

(٥) مقتل الحُسين (عليه السلام): للخوارزمي: ١/ ٢٣٤ .

(٦) مظاهر التداوليّة في مفتاح العلوم للسكاكي: باديس لهويمل، جامعة محمد خيضر، بِسكَرَة ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، الأردن ،٢٠١٤ م : ١٤٣ .

ومن السياقات الإنتاجية التوليدية التي ترشّحت من الخطاب الحسيني الأخلاقي بوصفها أفعالاً كلامية غير مباشرة، سياق التبكيت والتقريع، خطب (عليه السلام) في القوم بعد أنْ حالوا بينه وبين رحله، فصاح بهم الحسين (عليه السلام): "ويحكم يا شيعة آل سفيان؛ إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم هذه، وارجعوا إلى أحسابكم إن كنتم أعراباً كما تزعمون"(١). فنادى الشمر بن ذي الجوشن ماذا تقولُ يا حسين؟ قال: "أقولُ أنا الذي أُقاتلُكُم وتقاتلوني، والنِّساء ليس لكم عليهُنَّ جُناح، فامنعوا عُتاتَكم وطَغاتَكم وجُهَّالكم عن التَّعرّض لِخَرَمي مادُمتُ حيًّا"(٢). فمعاينة النص نستجلي القوة الإنجازية التأثيرية بلحاظ سياق التقريع والإهانة لهؤلاء، فالأفعال الكلامية (وَيْحَكم)، (شيعة آل سفيان) والطلقاء وأبناء الطلقاء، إنْ لم يكنْ لكم دين، وعدم الخوف من الميعاد تنبئُ بالفعل الدلالي الإنجازي التأثيري (التهديد والتقريع والذم)، إذ تتشكَّلُ هذه الأفعال من القضية التي تظهر بُعْد هؤلاء عن الشريعة المقدسة، بل إنكارها فضلًا عن عدم الخوف من وعيد الله (عزّ وجلّ)، فتتكوّن القضية من أمرين، الأول: الاقتضاء، أي اقتضاء جحود هؤلاء بالدين والمعاد والقيم الأخلاقية، والآخر: استلزام منطقي في لوم هؤلاء وتقريعهم وتبكيتهم؛ لجحودهم وإصرارهم على الذنب والمعصية.

ويتجلّى الفعل الإنجازي في قوّتين، قوّة إنجازية حرفية في البنية الجسدية للخطاب بمعاينة (وَيْحَكم، شيعة آل أبي سفيان، لم يكن لكم دين، عدم الخوف من الميعاد)، وقوّة إنجازية مستلزمة (تحذير وتوبيخ ولوم وعتاب).

يصوّر لنا هذا الخطاب الحسيني الأخلاقي إصرار هؤلاء على العصيان تكبّراً وتعالياً، غافلين عن قدرة الله (عزّ وجلَّ) ووعيده وناره، موبّخاً إياهم (عليه السلام) بسبب تماديهم وانحرافهم عن الحق والدين المقدّس.

ومن السياقات الإنتاجية التوليدية التداولية التي تمثِّلُ قوّةً إنجازيَّةً تأثيريَّةً في الخطابِ الحسيني الأخلاقيّ سياق (التقرير والإثبات)، الذي يتجلَّى ويزهرُ بأبهى صورة، وأكملها في قوله (عليه السلام): "ما أهونَ الموتَ على سبيلِ نيلِ العزّ، وإحياء الحقّ، ليس الموتُ في سبيل العزّ إلّا حياة خالدة، وليست الحياةُ مع الذّلِّ إلّا الموت الذي لا حياةَ معه"(٣). لا جَرَمَ أنَّ صورةَ الثائر المسلم قد تجلَّت بأبهى صورها وأكملها في إباء الإمام الحسين (عليه السلام). وقد أبدع ابن أبي الحديد في وصفِ إباء سيِّد الشهداء، الإمام الحسين (عليه السلام)، فقال: "سيِّدُ أهل الإباء الَّذي علَّمَ النَّاسَ الحمية، والمَوْت تحت ظلال السيوف اختيارًا على الدَّنيَّة أبو عبد الله الحسين بن عليّ بن أبي طالب (عليه السلام") (٤).

ويُمكنُ استظهار القوة الإنجازيَّة للفعل الكلامي المؤدَّى بأسلوب التعجب: (ما أفْعَلَهُ!)، (ما أهونَ الموت!)؛ إذ خرج الأسلوبُ من سياق الانفعال، واستعظام الزيادة في وصف الفاعل، أو من الانبهار والدهشة والانفعال الذي يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه؛ ولذا قيل: إذا ظهرَ السبب بَطَلَ العجب(٥). إلى سياق التقرير والإقرار، فالفعل الكلامي (ما أهونَ الموتَ) يتكون من فعل إسنادي (ما) والفعل المتعجب منه، ومن محمول الفعل (أهون)، وموضوعه الفاعل المستتر (المُتَعجِّبُ)، أي: ما أهونه (الموت) عندي، وفعل إحالي إحالة إلى النفس عن طريق الإشارة إليه بالفاعل المستتر. أمَّا الفعل الدلالي، فيتشكل من القضية التي تظهر

(١) مقتل الحُسين (عليه السلام): للخوارزمي : ٢/ ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٣٨ .

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٠٦.

(٤) شرح نهج البلاغة: عزّ الدّين عبد الحميد بن أبي الحديد المعتزلي، دار إحياء التراث، القاهرة، ١٣٨٥ه: ١/ ٥٧٠.

(٥) ينظر: شرح الكافية، الرضي الاستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، (د.ت): ٢/ ١٠٨٨.

الإقرار وتقرير (العزَّة) على الذلة، وإن كان ثمنها الموت والفناء، وتتكون القضيَّة من أمرين: الاقتضاء، أي: اقتضاء إقرار العزَّة وتقريرها على حساب الموت والفناء، والآخر: استلزام منطقي في إثبات العزّة وتقريرها، ونصرة الدين.

ويتجلَّى الفعل الإنجازي في قوَّتين: قوة إنجازية حرفية (بنيوية) أسلوب التعجب (ما أفْعَلَه!)، (ما أهونَ الموتَ!)، وقوة إنجازية تأثيريَّة مستلزمة (تقرير العزّة وإثباتها وإقرارها).

والذي يبدو أنَّ التعجب يمثلُ فعلًا لغويًّا مباشرًا نستدلُّ عليه حرفيًّا بقرائن بنيوية، (ما)، وفعل التعحب، والمفعول به، غير أنَّ الجملة في السياق التي وردت فيه لا يقصد بها إنجاز فعل التعجب والدهشة والانبهار، وإنَّما أُنجز بها فعل التقرير والإثبات، ومن ثمَّ تولَّد من التعجب غرضٌ تواصلي تداولي هو (التقرير).

ومن هنا عبَّر الإمام الحسين (عليه السلام) عن أسمى مواقف العزَّة، لأصحاب المبادئ والقيم الأخلاقية والتربوية السامية، وحملة الرسالات: "هيهات منا الذلَّة، يأبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حمية، ونفوس أبيَّة من أن نؤثرَ طاعة اللِّئام على مصارع الكرام"(١).

خاتمة البحث ونتائجه

أولًا: إنّ المنظومة الاخلاقية التي نستظهرها في الخطاب الحسيني هي منظومة أخلاقيّة ترتكز على المبادئ الدينية التي تنسجم ، والأسس التي تستشرف الغيب والدين وتجعل قيم الله تعالى وتعاليمه هدفًا، وهي تستمد مضامينها من الدين، ومن ثم فإنَّ تلك المنظومة الاخلاقية هي منظومة إلهية دينية .

ثانيًا: لا جَرَمَ أنّ نزعة الأخلاق، والوعظ، والإرشاد، تُعدّ علامة وضّاءة، وسمة غالبة في مراحل الخطاب الأخلاقي الحسيني كافة، وتهيمن على أغلب تراكيب الخطاب، ومن هنا تلوّنت أساليب الأخلاق، والوعظ والإرشاد، وتنوّعت بحسب المقامات الحالية، والسياقات التداولية.

ثالثًا: إنّ التواصل التداوليّ في الخطاب الحسينيّ الأخلاقيّ قائمٌ على الرجاء، واللطف والرحمة، والحنان، والرأفة، والجود والإحسان، وغيرها، وهي قيم أخلاقية عليا ومعانٍ مقاميّة، وسياقات تداولية إيجابية بنائية .

رابعًا: قدّم الإمام الحسين (عليه السلام) خطابًا قادرًا على النفوذ إلى الوعي الشعبي، والعقل الجمعي، فالخطاب الأخلاقي يجب أنْ لا يكون خطابًا نخبويًا وهو ليس لفئة دون أخرى، إنّه لعموم الناس ويجب أن يستخدم في آلياته البيانية تلك الآليات التي يمكن لعموم الناس أنْ يفهموا دلالاتها ومعانيها .

خامسًا: بدا لنا في ظلّ مباحثتنا في الأفعال الكلاميّة في الخطاب الأخلاقي الحسينيّ أنّ الأفعال الكلاميّة غير المباشرة هي أكثر ورودًا من الأفعال الكلاميّة المباشرة ، ولا غرو أنّ القوى الإنجازيّة التأثيريّة تأخذ مدياتها وتخومها في غير المباشرة ، وهذا ما لفتنا إليه الخطاب الحسينيّ الأخلاقيّ .

سادسًا: إنّ المتحصل من جسد اللغة في ضوء النظام اللغوي، وإنّ ما يقدّمه جسد اللغة البنيوي إنَّما هو المعنى البنيوي المقالي فقط، والجسد لابُدَّ له من محيط يشتمل عليه، ويؤثر فيه، ومن هنا يأتي فضل سياق الحال، والأنظار الخارجيّة، والقرائن لتفعل فِعْلها في تشكيل المعنى، وبذا يكون المعنى مؤتلفًا من الرافدين: المعنى المقالي والمعنى المقامي، وما ينسب إلى المقامي ملاحظة الأحوال، والقرائن والأنظار الخارجيّة التي تعدّ رافدًا معنويًّا أمينًا ذا وظائف متعددة .

(١) مقتل الحسين (عليه السلام)، الخوارزمي: ٢/ ٩.

سابعًا: إنّنا بحاجة الى تحليل الخطاب الأخلاقي الحسيني من أجل فهمه وإعادة تقييمه من جديد، فإذا لم تحصل تلكم المراجعة لهذا الخطاب فلنْ تحصل النتائج الخصبة والمفيدة، التي تجعل هذا الخطاب تداوليًا على مرّ الأزمان والأعصار .

ثامنًا : علينا قراءة الخطاب الأخلاقي الحسيني قراءة نقدية واعية، ولا تحصل هذه القراءة إلاّ بدراسة الأفعال الكلامية عنده من أجل بيان إرادة الامام الحسين (عليه السلام) وقصديته .

تاسعًا : الخطاب الأخلاقيّ الحسيني يسعى إلى إصلاح القيم المثلى، ومعلوم أنّ القيمة عبارة عن معنى يتجاوز الواقع، إذ يُحدّد لا ما هو كائن، وإنّما ما يجب أنْ يكون ، ومن هنا كُتِب لخطابه (عليه السلام) الديمومة والخلود.

عاشرًا: إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) كان يشاغف المجال التداوليّ (الثقافة المتداولة) في عصره في ضوء التصور الدلاليّ المتناغم من حال المجتمع، وما أصابه من تقهقر، ونكوص في القيم الأخلاقيّة التي تعدّ أس الإنسانية وجوهرها .

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم

- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر: محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.
- الإحكام في أصول الأحكام: أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي (ت٦٣١هـ) ، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي ، المكتب الإسلامي، بيروت، (د.ت).
- أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لـ(هابرماس): د. محمد عبدالسلام الأشهب، الطبعة الأولى، دار ورد، الأردن، ٢٠١٣م .
- أساس البلاغة: جار الله أبو القاسم الزمخشري (ت ٥٣٨ ه)، دار صادر، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٢م .
- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية: عبدالهادي بن ظافر الشهري، الطبعة الأول، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت، ٢٠٠٤ م .
- الاستلزام الحواريّ في التداول اللسانيّ، العياشيّ أدراوي، الطبعة الأولى، دار الأمان، المغرب، ١٤٣٢ه ـــــ ٢٠١١م .
- الأفق التداولي (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية)، د. إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث ، الطبعة الأولى، أربد، الاردن، ٢٠١١م .
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسيّ (١١١١٠ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ ه – ١٩٨٣م .
- البحر المحيط في أصول الفقه : بدر الدين الزركشي(ت ٧٧٢ه) ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت،٢٠٠٠م .
- البيان بلا لسان (دراسة في لغة الجسد): د. مهدي أسعد عرّار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م – ١٤٢٨ه.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠ ه)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م .

- التداوليّة في الفكر النقدي، الدكتور كاظم جاسم منصور العزاويّ، الطبعة الأولى، الشركة العربية المتحدة، القاهرة ، ٢٠١٦ م .
- التداولية اليوم، آن ومرشلار جاك، ترجمة سيف الدين دغفوساميكو، ومحمد الشيباني، الطبعة الأولى، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣ م .
- تفسير القرآن الكريم:صدر الدين الشيرازي (ملا صدرا)، تحقيق: بيدافر، الطبعة الثالثة، دار المعارف، بيروت، ١٤١٥ ه.
- الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة : د . عبدالله ابراهيم، الطبعة الأولى، الدار العربية للعلوم، بالاشتراك مع دار الأمان، الرباط ، ٢٠١٠م .
- الخطاب الأدبي ورهانات التأويل (قراءات نصية تداولية حجاجية): نعمان بوقرة ، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، الاردن، ٢٠١٢م .
- سؤال العمل: طه عبدالرحمن، المركز الثقافيّ العربي، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ٢٠١٢ م .
- القصدية (بحث في فلسفة العقل): جون سيرل، ترجمة: أحمد الأنصاريّ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.
- قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم: سناء حميد البياتي، دار وائل للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن ، ٢٠٠٣ م .
- لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور(٧١١ه)، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ .
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: د. طه عبد الرحمن، الطبعة الأولى، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٨م.
- مدخل إلى علم الأخلاق: شفيق جرادي، الطبعة الأولى، دار المعارف الحكمية، بيروت، ٢٠١٤م – ١٤٣٥ه.
- مظاهر التداولية في مفتاح العلوم، للسكاكي: باديس لهويمل،الطبعة الأولى،عالم الكتب، الأردن، ٢٠١٤م.
- معجم المصطلحات اللغوية: د . رمزي منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- معجم تحليل الخطاب: باتريك شارودو، ترجمة عبدالقادر المهيري ، وحمادي صمود ، مراجعة صلاح الدين الشريف، دار سيناترا ، تونس ، ٢٠٠٨ م.
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن عليّ السكّاكي (ت٦٢٦ه)، تحقيق: أكرم يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط١، ١٩٨٢م.
- المقاربة التداولية: فرانسواز أرمينكو ، مركز الإنماء القومي ، (د ٠ ت) ٠
- مقاييس اللغة : أبو الحسين احمد بن فارس(٣٩٥ه)، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، ١٣٩٩هـ .
- مقتل الحُسين (عليه السلام): أبو المؤيد الموفق بن أحمد أخطب خوارزم (ت ٥٦٨ه) تحقيق الشيخ محمد السماوي، منشورات أنوار الهدى، قم ، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥ه – ٢٠٠٥م .
- المنطق: محمد رضا المظفر، (ت ١٣٨٣ه)، دار التعارف، بيروت، ط٣، ١٩٩٠م
- نظرية الفعل الكلاميّ (بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والاسلاميّ: هشام إبراهيم عبدالله الخليفة، لونجمان، بيروت، ٢٠٠٧ م.

- نقد العقل العربي (العقل الأخلاقي العربي): محمد عابد الجابري، الطبعة الخامسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ٢٠١٢ م .
- نهاية المرام في علم الكلام: الحسن بن يوسف الحليّ، تحقيق: فاضل العرفان، الطبعة الأولى، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤٢٩ه .
- ومضات السبط، البعد العقائدي والأخلاقي في خطب الإمام الحسين (عليه السلام): الشيخ علي الفتلاوي، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة ، كربلاء المقدسة، ١٤٣٢ه –٢٠١١م .

البحوث والدراسات

- تداولية قبل التداوليّة (هي تداولية قروسطية عربية إسلاميّة)، بيار لارشي، ترجمة الدكتور عزّ الدين المجدوب، (بحث) منشور في (إطلالات على النظريات اللسانية والدلاليّة في النصف الثاني من القرن العشرين) (مختارات معرّبة)، ط١، بيت الحكمة، قرطاج _ تونس ٢٠١٢م .
- خطبتا الزهراء (عليها السلام) دراسة في البعد التداولي في نظرية أفعال الكلام: د. خالد حويّر الشمس، بحث في مجلة العميد، العتبة العباسية المقدسة العدد/ ٩٤، المجلد ٣ السنة الثالثة ، ١٤٣٥ه – ٢٠١٤م .
- في التداولية: (إشكاليّة المصطلح بين المفهوم والترجمة والتعريب): د. عيد بلبع، بحث في مجلة الأقلام، بغداد، العدد /٥ ، ٢٠٠٨م .

الرسائل الجامعيّة

- الاستلزام الحواري في سورة البقرة في القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية تداولية) (رسالة ماجستير)، حجر نورما وحيدة، جامعة مولانا مالك إبراهيم، مالانج. أندنوسيا، ٢٠١٠م.